أزمة الأنبار...
من القاعدة إلى داعش

د. جواد كاظم البكري*
باحث وأكاديمي من العراق

* استاذ الازمات الاقتصادية ـ جامعة بابل ـ عضو مركز حمورابي

مقدمة

تشكل أزمة الأنبار إحدى الأزمات الكبيرة التي من الممكن أن تغير مجرى الأحداث في العراق إلى الأبد، نتيجة للتعقيد الكبير الذي يلف أحداثها، فضلاً عن تداخل الأجندات الخارجية ولا سيّما الخليجية، وتعدد قوى الأزمة، فهي تحتوي على أربعة قوى محلية كلاً تدفع باتجاه، وهي جيش العشائر، تنظيم دولة العراق والشام الإسلامية، والجيش العراقي والشرطة المحلية، فضلاً عن الدول الإقليمية التي تدعم الأجندات السياسية في منطقة غرب العراق، من بينها السعودية.

إذ شكلت الاعتصامات التي انطلقت في أواخر شهر كانون الأول من العام 2012 في مدينة الأنبار أعقاب قيام قوة أمنيه بمحاصرة منزل وزير المالية العراقي من القائمة العراقية رافع العيساوي واعتقال أفراد من حمايته، الشرارة الأولى لما آلت إليه الأحداث في العراق اليوم، فكان اعتقال أفراد حماية العيساوي ومداهمة منزله سبباً مباشراً، للدعوة إلى التظاهر ضد الحكومة من زعماء القائمة العراقية، إذ خرج بضعة الآف من المتظاهرين إلى شوارع الأنبار بعد صلاة الجمعة، وقام المتظاهرون بإغلاق الطريق السريع في الفلوجة، وطالب زعماء محليين بمحاسبة القوات التي قامت بمداهمة منزل العيساوي، وإيقاف استهداف رموز مناطق غرب العراق.

خرج عشرات الآلاف من المتظاهرين متوجهين إلى الطريق الدولي بين العراق والأردن وسوريا وقاموا بإغلاقه، وهم يهتفون بإسقاط النظام ويرفعون علم العراق السابق

وفي 26 كانون الأول 2012 خرج عشرات الآلاف من

المتظاهرين متوجهين إلى الطريق الدولي بين العراق والأردن وسوريا وقاموا بإغلاقه، وهم يهتفون بإسقاط النظام ويرفعون علم العراق السابق الذي يحتوي على النجمات الثلاثة، والذي تم تغييره أعقاب سقوط نظام صدام حسين في 2003، وقد شارك في التظاهر مجموعة من الساسة بينهم رافع العيساوي وزير المالية الذي ألقى كلمة أثناء الاعتصام، وفي سامراء نظمت مجاميع قليلة اعتصاماً يؤيد التظاهرات في الأنبار، في اليوم نفسه أصدر السيد مقتدى الصدر بياناً، عبر فيه عن دعمه للاحتجاجات، وأنه يرفض سياسات رئيس الوزراء نوري المالكي.

وفي 15 شباط 2013 نادى بعض زعماء الاعتصامات في الأنبار والموصل وسامراء، بتوجه المتظاهرين إلى بغداد للتظاهر فيها يوم الجمعة، التي سميت (جمعة بغداد صبراً)، إلا أنهم أعلنوا لاحقاً عدولهم عن الذهاب إلى بغداد درءاً للفتنة كما وصفوها، فيما واصل المحتجون تظاهرهم، وعلى خلفية قيام مسلحين مجهولين بإطلاق النار على دورية للجيش بالقرب من ساحة الاعتصام في مدينة الحويجة في كركوك، وفرارهم إلى داخل مخيمات المعتصمين قامت القوات الأمنية، بفرض حصار وطوق أمني مشدد على ساحة التظاهر ومطالبة العشائر والمتظاهرين بتسليم مهاجمي دورية الجيش، بينما رفض المتظاهرون ذلك قامت قوات الأمن فجر يوم 23 نيسان 2013، بمهاجمة ساحة التظاهر والاشتباك مع المعتصمين، ما أدى إلى مقتل50 متظاهر كان بحوزتهم أسلحة، فيما قتل 6 جنود بنيران المسلحين داخل ساحة الاعتصام، بعد ساعات قليلة من الهجوم، أعلنت وزارة الدفاع عن ضبطها كميات كبيرة من الأسلحة والعتاد كانت مخبأة في خيام المعتصمين.

أعلنت وزارة الدفاع عن ضبطها كميات كبيرة من الأسلحة والعتاد كانت مخبأة في خيام المعتصمين.

أولاً: جيش العشائر

على خلفية أحداث الحويجة وفي 24 نيسان 2013، تم تشكيل ما يسمى بـ(جيش العشائر) الذي سيشكل البيت الأول من رباعية الأزمة من المعتصمين، وقام مسلحو هذا التشكيل بالكثير من العمليات المسلحة، بدأت في الحويجة وسلمان باك وامتدت إلى الأنبار والفلوجة، في 29 من نيسان 2013 فشل السيد أسامة النجيفي رئيس البرلمان العراقي في مسعاه،

الذي جاء كمبادرة لحل الأزمة الحالية ومنع دخول البلاد في حرب أهلية، دعا فيها إلى استقالة الحكومة العراقية الحالية التي يتراسها السيد نوري المالكي، وحل البرلمان وإجراء انتخابات برلمانية مبكرة.

استجابة لمطالب المتظاهرين أعلنت الحكومة العراقية إفراجها عن 12 معتقلة في سجونها، وكذلك أصدرت قرار بأنه يمكن للمعتقلات غير المفرج عنهن قضاء فترة الحكم المتبقية في محافظاتهن الأصلية، وجاء ذلك بعد مطالبات بالإفراج عن المعتقلات في السجون العراقية من قبل المتظاهرين، فيما أعلنت قيادة شرطة الأنبار في 15 فبراير 2013 عن إطلاق سبع نساء معتقلات من أهالي المحافظة، من سجن الرمادي المركزي وفق أمر قضائي تم تنفيذه وتسليم المفرج عنهن إلى ذويهم.

ثانياً: دولة العراق والشام الإسلامية

تشكل دولة العراق والشام الإسلامية البيت الثاني من أزمة الأنبار اليوم، ودولة العراق والشام الإسلامية، أو ما تسمى اختصاراً بـ(داعش)، هو تنظيم مسلح يُوصف بالإرهاب ويتبنى الفكر السلفي الجهادي، يهدف أعضاؤه إلى إعادة ما يسموه بالخلافة الإسلامية وتطبيق الشريعة، يتخذ من العراق وسوريا مسرحاً لعملياته وزعيم هذا التنظيم هو (أبو بكر البغدادي).

هو تنظيم مسلح يُوصف بالإرهاب ويتبنى الفكر السلفي الجهادي، يهدف أعضاؤه إلى إعادة ما يسموه بالخلافة الإسلامية وتطبيق الشريعة،

بعد تشكيل جماعة التوحيد والجهاد بزعامة أبي مصعب الزرقاوي في عام 2004 وتلى ذلك مبايعته لزعيم تنظيم القاعدة السابق أسامة بن لادن، ليصبح تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين، كثف التنظيم من عملياته إلى أن اصبح واحداً من اقوى التنظيمات في الساحة العراقية، وبدأ يبسط نفوذه على مناطق واسعة من العراق إلى أن جاء في عام 2006 ليخرج الزرقاوي على الملأ في شريط مصور معلناً عن تشكيل مجلس شورى المجاهدين بزعامة عبدالله رشيد البغدادي، بعد مقتل الزرقاوي في نفس الشهر جرى انتخاب أبي حمزة المهاجر زعيماً للتنظيم، وفي نهاية السنة تم تشكيل دولة العراق الإسلامية بزعامة أبي عمر البغدادي، وهو التاريخ الذي بدأ به تكوين الدولة الإسلامية في العراق، ففي 15 تشرين الأول 2006 إثر اجتماع مجموعة من الفصائل المسلحة ضمن معاهدة (حلف المطيبين) تم اختيار (أبو عمر البغدادي) زعيماً له، وبعدها تبنى

التنظيم العديد من العمليات النوعية داخل العراق آنذاك، وبعد مقتل أبي عمر البغدادي في يوم 19-4-2010 أصبح أبو بكر البغدادي زعيماً لهذا التنظيم، وشهد عهد أبي بكر توسعاً في العمليات النوعية المتزامنة (كعملية البنك المركزي، ووزارة العدل، واقتحام سجني (أبو غريب والحوت)[1].

(1) Islamic State of Iraq, Institute for the Study of Violent Groups, 2014.

وبعد اندلاع الأزمة السورية بدأ تكوين الفصائل والجماعات المسلحة، ففي أواخر العام 2011 تم تكوين جبهة النصرة بقيادة أبي محمد الجولاني، إذ أصبح الأمين العام ووردت تقارير استخباراتية تشير إلى علاقتها الفكرية والتنظيمية بفرع دولة العراق الإسلامية، بعد ذلك أدرجتها الولايات المتحدة الأمريكية على لائحة المنظمات الإرهابية، وبتاريخ التاسع من نيسان 2012 ظهر تسجيل صوتي منسوب إلى أبي بكر البغدادي، يعلن فيها أن جبهة النصرة هي امتداد لدولة العراق الإسلامية، وأعلن فيها إلغاء اسمي جبهة النصرة ودولة العراق الإسلامية وجمعهما، تحت مسمى واحد وهو الدولة الإسلامية في العراق والشام[2].

(2) Aymenn Jawad Al-Tamimi, Middle East Review of International Affairs, Vol. 17, No. 3 (2013), p. 19.

بعد ذلك بفترة قصيرة ظهر تسجيل صوتي لأبي محمد الجولاني، يعلن فيه عن علاقته مع دولة العراق الإسلامية، لكنه نفى شخصياً أو مجلس شورى الجبهة أن يكونوا على علم بهذا الإعلان، فرفض فكرة الاندماج وأعلن مبايعة تنظيم القاعدة في أفغانستان، وعلى الرغم من ذلك فإن للدولة الإسلامية وجبهة النصرة العديد من العمليات العسكرية المشتركة[3].

(3) Islamic State of Iraq and the Levant, Terrorism. Research & Analysis Consortium, 2013.

أعلن زعيم تنظيم القاعدة أيمن الظواهري إلغاء تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام

ثم أعلن زعيم تنظيم القاعدة أيمن الظواهري إلغاء تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام، واستمرار العمل بدولة العراق الإسلامية ضمن حدود العراق، وجبهة النصرة لأهل الشام في حدودها بسوريا.

وانتقد الظواهري في تسجيل صوتي بتاريخ 23 أيار2012، إعلان زعيم دولة العراق الإسلامية أبو بكر البغدادي، عن إنشاء تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام من دون استشارة قيادة تنظيم القاعدة أو إخطارها، وانتقد أيضا قائد جبهة النصرة لأهل الشام أبا محمد الجولاني لرفضه التنظيم المستحدث، وإعلانه الولاء لتنظيم القاعدة من دون استشارة قيادة التنظيم أو إعلامها.

وأوضح الظواهري أن جبهة النصرة فرع مستقل لتنظيم القاعدة وولايته المكانية سوريا، وقرر اختيار أبي محمد الجولاني قائداً للجبهة مدة عام، على أن يرفع مجلس شورى الجبهة تقريراً إلى قيادة القاعدة، لاتخاذ قراره بشأن استمراره أو اختيار قائد بديل، وسمى الظواهري أيضاً البغدادي أميراً لدولة العراق الإسلامية مدة عام، على أن تتخذ قيادة التنظيم قراراً باستمراره أو إعفائه بعد تلقي تقرير من مجلس شورى التنظيم العراقي، وطلب الظواهري من البغدادي والجولاني تبادل المساعدة والحرص على وقف المواجهات بينهما، اليوم تشمل سيطرة (داعش) على مساحات محدودة في المحافظات العراقية، على حين تغطى الهجمات التي تشنها كل الأراضي العراقية، ولكن تعد المحافظات الغربية الست مراكز تواجد دولة العراق والشام الإسلامية.

طلب الظواهري من البغدادي والجولاني تبادل المساعدة والحرص على وقف المواجهات بينهما

أما في سوريا فتتواجد (داعش) وتسيطر على مناطق في محافظات الرقة وحلب وريف اللاذقية وريف دمشق ودير الزور وحمص وحماة والحسكة وإدلب، ويتفاوت التواجد والسيطرة العسكرية من محافظة إلى أخرى، فمثلاً لديها نفوذ قوي في محافظة الرقة وفي بعض أجزاء محافظة حلب ولديها نفوذ أقل في حمص واللاذقية[4].

(4) Christopher M. Blanchard, and other, Armed Conflict in Syria: Overview and U. S. Response, Congressional. Research Service, January 14, 2014.

وتمتلك (داعش) العديد من الدبابات والصواريخ والسيارات المصفحة والسيارات رباعية الدفع، والأسلحة المتنوعة التي حصلت عليها من الجيش العراقي والجيش السوري وغيرهم.

وفيما يخصّ جنسيات مقاتلي (داعش)، فإن معظم المقاتلين على الأرض في سوريا هم سوريون، لكن قادة التنظيم غالباً ما يأتون من الخارج، وسبق أن قاتلوا في العراق والشيشان وأفغانستان وعلى جبهات أخرى، وفي العراق معظم مقاتلي داعش هم عراقيون وعرب، وأن عدداً من قادة التنظيم العسكريين عراقيون أو ليبيون، في حين أن قادته الدينيين من السعودية أو تونس.

ثالثاً: الجيش العراقي

في 22 كانون الأول 2013 أعلن القائد العام للقوات المسلحة السيد نوري المالكي، عن بدء عمليات أمنية واسعة في صحراء الأنبار، بمختلف صنوف

الأجهزة الأمنية لملاحقة أعضاء تنظيم (داعش)، أطلق عليها تسمية ثأر قائد الفرقة السابعة محمد الكروي، الذي قتل ومعه مجموعة من الضباط والجنود في أثناء مطاردته عدداً من عناصر التنظيم في المناطق الصحراوية من الأنبار امتداداً للحدود السورية والأردنية.

وقد حقق الجيش العراقي انتصاراً واضحاً على تلك التنظيمات، حظي بدعم شعبي واسع حتى من عشائر المحافظات الغربية، بعد توغله في وادي حوران المأوى الأكبر لتنظيمات داعش، والذي كان عصياً على قوات الجيش منذ زمن، لما يتمتع به هذا الوادي من ظروف جغرافية وتضاريس وعرة، ساهمت بشكل كبير على جعله ملاذاً آمناً ليس للتنظيمات الإرهابية فقط، وإنما للكثير من المهربين والخارجين على القانون حتى في زمن النظام السابق.

ولكن حدثين في غاية الأهمية قلبا صورة ذلك الانتصار فيما بعد، الأول كان اعتقال النائب أحمد العلواني ومقتل شقيقة بتاريخ 28 كانون الأول 2013، والثاني فض اعتصامات الأنبار من قوات الأمن العراقية بعد يومين من اعتقال العلواني، أدى ذلك إلى نشوء أزمة الأنبار التي تفاعلت فيما بعد، ليدخل جيش العشائر الذي تم تشكيله قبل ذلك بثمانية أشهر طرفاً في الأزمة.

رابعاً: الشرطة المحلية

اندلع في نفس يوم فض الاعتصامات قتال بين جيش العشائر والجيش العراقي، الأمر الذي أدى إلى انسحاب الجيش العراقي من مدينة الرمادي، تاركاً خلفة فراغاً أمنياً استثمره تنظيم (داعش) المطارد من الجيش في الصحراء، ليلجأ إلى المدن ويسيطر على أجزاء كبيرة من مدينة الرمادي ومن ثم مدينة الفلوجة، وليسيطر على (90%) من مراكز الشرطة في المدينة بعد تركها من الشرطة المحلية.

هذا الأمر دعا العشائر إلى مساندة الشرطة المحلية، ومن ثم استعادة أغلب المراكز في الرمادي، ولكن الأمر في مدينة الفلوجة مختلف تماماً، فأغلب العشائر هناك وقفت إلى جانب تنظيم (داعش)، مدعية أنه لا يتواجد مقاتلو التنظيم المذكور في المدينة.

أغلب العشائر هناك وقفت إلى جانب تنظيم (داعش)، مدعية أنه لا يتواجد مقاتلو التنظيم المذكور في المدينة.

أزمة مركبة

تتفاعل الأزمة في ظل تعدد القوى الدافعة لها، وتنحسر حلولها، ولاسيما إذا كانت تلك الأزمة وليدة مشكلات سابقة تراكمت لتولد أزمة مركبة، وجانب التعقيد في أزمة الأنبار اليوم هو تعدد مسبباتها بين مسببات سياسية واقتصادية واجتماعية، وتعدد نتائجها أيضاً، فضلاً عن دفع أطراف خارجية لتأجيجها لمصالح خاصة بتلك الأطراف.

فالوضع اليوم في الأنبار هو وضع شاذ بكل ما تعنية الكلمة، فلا الحكومة لديها القدرة العسكرية الكافية لحل الأزمة، ولا العشائر في المحافظات الغربية ترغب في تدخل القوات الحكومية، فضلاً عن توزع الولاء العشائري هناك بين مؤيد ومعارض لتنظيم (داعش)، أما مجالس الصحوة فأثبتت عدم فاعليتها عندما تتعدد القوى الازموية في المحافظات الغربية.

أما إذا رغبت الأطراف السياسية في الاستمرار باللعب على أوتار هذه الأزمة لأغراض انتخابية، فإن أغلب الظن أن الأزمة ستكون نتيجتها حرب استنزاف أطرافها الجيش العراقي وتنظيم (داعش) وجيش العشائر، وستكون عشائر المحافظات الغربية منقسمة على نفسها بين مؤيد ومعارض للتنظيمات الإرهابية، لذا من غير المستبعد أن تكون هناك حرب أهلية داخل المنطقة الغربية طرفاها العشائر المؤيدة والمعارضة لتلك التنظيمات الإرهابية، وهذا يزيد من قوة تلك التنظيمات فهي عادةً ما تعتاش على الفوضى، وكما اثبتتها التجارب السابقة.

أن الأزمة ستكون نتيجتها حرب استنزاف أطرافها الجيش العراقي وتنظيم (داعش) وجيش العشائر

وتبقى الأحداث التي تلي تصاعد الأزمة مكفولة بالأطراف السياسية الرئيسة على الساحة العراقية، فهناك أطراف تصر على الحلول الأمنية والعسكرية للأزمة، وهناك أطراف ترغب في حلول سياسية ـ اقتصادية ـ اجتماعية، وهناك قسم آخر ينادي بالتقسيم على أساس أن آخر الدواء الكي.